

المواجهة العسكرية والثقافية للاستعمار الفرنسي في منطقة توات (1956-1962) The Military and Cultural Confrontation Against French Colonialism in the Touat Region (1956-1962)

د. خثير صافي

جامعة أحمد دراية أدرار - الجزائر، khatirsafi@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2024/11/12 تاريخ القبول: 2024/12/05 تاريخ النشر: 2024/12/30

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى بيان أهمية الدور الثوري في مواجهة الاستعمار الفرنسي في منطقة توات، وأن هذا المستعمر الغاشم قوبل بالصد عسكريا وثقافيا وفكريا، فجاءت هذه دراسة لتبرز نضال إقليم توات خلال فترة الثورة الجزائرية (1956-1962)، في سياق الفهم الشامل لتاريخ الكفاح التحريري الجزائري. على الرغم من الدور المحوري الذي لعبه أهل توات في مقاومة الاستعمار الفرنسي، إلا أن هذا الإقليم ظل غائبا عن العديد من الدراسات التاريخية التي ركزت بشكل أكبر على الأحداث التي جرت في شمال الجزائر.

إن هذا الإهمال النسبي يعود إلى عدة عوامل، من بينها غياب الاهتمام الكافي بجمع وتحليل المصادر التاريخية المتعلقة بنضال أهل توات، سواء كانت مكتوبة أو شفوية. ومع ذلك، فإن هذه المصادر المتوفرة تشكل ثروة معرفية هائلة يمكن الاستفادة منها لإبراز الدور الفريد الذي لعبه أهل توات في الثورة الجزائرية.

كلمات مفتاحية: الثورة الجزائرية؛ الاستعمار الفرنسي؛ توات؛ المواجهة؛ المقاومة الشعبية.

Abstract: This study aims to highlight the importance of the revolutionary role in confronting French colonialism in the Touat region, and that this brutal colonizer was met with military, cultural, and intellectual resistance. This study seeks to showcase the struggle of the Touat region during the Algerian revolution (1956-1962), within the context of a comprehensive understanding of the history of the Algerian liberation struggle. Despite the pivotal role played by the people of Touat in resisting French colonialism, this region has remained overlooked in many historical studies that have focused

more on events that occurred in northern Algeria. This relative neglect is due to several factors, including the lack of sufficient interest in collecting and analyzing historical sources related to the struggle of the people of Touat, whether written or oral. Nevertheless, the available sources represent a vast knowledge resource that can be utilized to highlight the unique role played by the people of Touat in the Algerian revolution.

Keywords: Algerian revolution; French colonialism; Touat; Confrontation; popular Resistance.

مقدمة:

تكتسي دراسة النضال السياسي والثوري لإقليم توات خلال الفترة الممتدة من 1956 إلى 1962 أهمية بالغة في سياق التاريخ الجزائري. على الرغم من الدور المحوري الذي لعبه أهل توات في مقاومة الاستعمار الفرنسي، إلا أن هذه المرحلة التاريخية لم تحظ بالاهتمام الكافي في الدراسات التاريخية. يعود ذلك جزئياً إلى التركيز التقليدي للدراسات التاريخية على الأحداث التي جرت في شمال الجزائر، وتجاهل الأبعاد الجغرافية والاجتماعية والثقافية للصحراء.

إن هذا الإهمال يمثل إشكالية كبيرة، خاصة وأن هناك ثروة من المصادر الأولية المتاحة، سواء كانت فرنسية المنشأ أو شفوية، والتي تقدم شهادات حية على نضال أهل توات. هذه الشهادات تكشف عن دورهم الريادي في تأسيس الجبهات العسكرية الأمامية، وتؤكد على أهمية مساهمتهم في الثورة الجزائرية.

لذلك، فإن هذا البحث يهدف إلى سد هذه الثغرة المعرفية، من خلال تقديم قراءة جديدة لنضال أهل توات. ستعتمد هذه القراءة على تحليل شامل للمصادر الأولية والثانوية، مع التركيز على دور العوامل المحلية والإقليمية في تشكيل هذا النضال. كما سيسعى البحث إلى إبراز الخصائص المميزة لنضال أهل توات، وتأثيره على مسار الثورة الجزائرية بشكل عام. إن الدافع وراء اختيار هذا الموضوع البحثي هو الرغبة في إكمال السرد التاريخي الوطني، وتصحيح الروايات المشوهة عن نضال إقليم توات خلال الثورة الجزائرية. حيث تهدف هذه الدراسة إلى سد الفراغ المعرفي القائم حول هذا الموضوع، وإبراز الدور الحضاري والسياسي البارز الذي لعبه أهل توات في

تاريخ الجزائر، وذلك من خلال تحليل شامل للمصادر المتاحة وتقديم رؤية جديدة وموضوعية للأحداث.

في هذه الدراسة نستعرض اهتمام الفرنسيين بالإقليم وأهميته الإستراتيجية باعتباره منفذا هاما للدخول إلى غرب إفريقيا، وتحلى ذلك في البعثات الاستكشافية الهادفة أساسا إلى وضع حد للقلق والاضطرابات التي تثيرها قبائل الجنوب، ومنع حركات المقاومة بزعامة الشيخ بوعمامة في الواحات الغربية تينجورارين وتوات، ووضع المنطقة في سياج آمن لتشييد سكة حديدية للنقل الصحراوي.

فقد اعتمدت فرنسا الاستعمارية على إنشاء المراكز والحصون مثل: المنيعة واقلي وعين صالح، بعدما تحولت تلك البعثة العلمية بزعامة فلامون سنة 1899 م إلى حملة عسكرية استعمارية، لقد استبسل سكان: تيديكلت واقلي وتوات في التصدي لهذه الحملة الشرسة، مع إبراز السياسة المتبعة من قبل المحتل والمعتمدة أساسا على الهيمنة والعنصرية واضعة ترسانة من القوانين التنظيمية لإخضاع الإقليم للمصالح الفرنسية.

ولإنجاز هذه الدراسة اعتمدنا المنهج التاريخي بآلية التحليل للأحداث التاريخية وتتبعها من مصادرها الأصلية أحيانا، وأحيانا آلية الوصف خاصة فيما تعلق بالمعارك ومجرياتهما. ويتخلل ذلك المنهج الإحصائي في بعض الأحيان الذي خدمنا في معرفة تعداد المعارك والقتلى والمجندين في صفوف العدو، وكذا أعداد الشهداء والمجاهدين والعلماء الذين زحرت بهم المنطقة. وجاءت هذه الدراسة لتجيبنا عن إشكالية جوهرية تمثلت في: إلى أي مدى ساهمت منطقة توات في رفض ودحض الاستعمار الفرنسي عسكريا وفكريا؟

ولالإجابة عن هذه الإشكالية المحورية رأينا العودة فحص النظرة الاستعمارية عن طريق البعثات الاستكشافية وما نتج عنها من إحاطة معلوماتية بالمنطقة وتفاصيل الحياة اليومية للمواطن التواتي.

أولا: اهتمامات الفرنسيين بإقليم توات والبعثات الاستكشافية

لقد تسابق الأوروبيون لاكتشاف الصحراء وخاصة الفرنسيين منهم، وتحلى ذلك بعد نجاحهم في السيطرة على القسم الشمالي من الجزائر، وتحمسوا لبسط نفوذهم على الصحراء الإفريقية، إلا أن مقاومة سكانها أعاقتهم واقترن هذا الغزو والتوسع لمحاولة التعرف على إمكانات الصحراء

الاقتصادية والبشرية، ودراسة المجموعات السكانية والتعرف على عاداتها وتقاليدها وتاريخها السياسي والحضاري. (بوعزيز، 1999، الصفحات 63-64)

ونستشف ذلك من خلال قراءة التقرير الذي رفعه المارشال سولت (SOULT) وزير الحربية إلى الملك لويس فيليب (بوعزيز، 1999) والذي قال فيه: (يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية صنفا ثالثا من الجهات الإدارية ففي هذه الجهات لا أثر للمعمرين ولا تطوُّها الجيوش إلا عرضا لقمع الفوضى، أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية وتوسيعها وهي مناطق تفتح لنا مجالا لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنة). ونفس التقرير الذي أرسله الوالي العام بيجو (بوعزيز، 1999) إلى المارشال سولت (SOULT) وفيه يقول: (وبسيطرتنا على هذه المناطق تفتح لنا آفاق واسعة لازدهار تجارتنا وربطها بإفريقية الداخلية). فأوضحت توات إقليميا مستهدفا من قبل الفرنسيين باعتبارها مركزا محوريا للقوافل التجارية ومحطة غنية للتبادل الاقتصادي والثقافي والأمني. (حوتية، 2007، صفحة 467/2)

ففي النصف الثاني من القرن الـ19 كثف الفرنسيون نشاطهم الاستكشافي فكانت ثورات الشعب الجزائري في الشمال سببا في تحول الواحات الصحراوية في الجنوب إلى معقل للثوار والمجاهدين، الذين يفرون إليها للاعتصام والاستعداد، ولذلك عزم الفرنسيون على التوسع في أعماقها خاصة بعد أحداث حركة الشريف محمد بن عبد الله، وثورة أولاد سيد الشيخ بالجنوب الوهراني والثائر بوشوشة، وفي هذا الصدد يقول محفوظ قداش: (مثلما كانت الجبال منذ القديم معقلا للمجاهدين فإن الصحراء الجزائرية هي حليفة الثوار والمقاومين للاحتلال الفرنسي، إن مقاومة الجنوب كانت رائعة مثل الشمال مبنية وحدة البلاد). (KADDACHE, 2003, p. 155)

واشتد هذا الاهتمام أكثر بعد تعرض بعض حملاتهم وبعثاتهم العسكرية التوسعية إلى هجمات المقاومين الجزائريين في أعماق الصحراء، مما حفزهم وقوى من عزمهم أكثر للتوسع والسيطرة على كل الواحات الصحراوية ووضع حاميات تضمن لهم الأمن وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة ما دعوه: (نشاط أتباع الطريقة السنوسية بليبيا ومنع سلطان المغرب الأقصى من مد نفوذه لمنطقة الجنوب الغربي). (حوتية، 2007، صفحة 147)

وكان حادث مقتل بول فلاترز (FLATTERS) ورجال بعثته سنة 1881م، من طرف الطوارق البداية الجديدة للتوسع الفرنسي إلى أعماق الصحراء فكانت عبارة عن بعثات وحملات عسكرية واستطلاعية الغاية منها السيطرة والاستعمار.

بعد احتلال الجزائر شهد الإقليم العديد من البعثات الاستكشافية فجاءت تقاريرهم مشجعة للسلطة العسكرية والمدنيين على ضرورة استعمار هذه المنطقة، من بينها رحلة رونيه كاييه هو أول مغامر فرنسي استطاع أن يعبر الصحراء وصولاً إلى تومبوكتو مارا بإقليم توات في زي تاجر متظاهر بالإسلام بين عامي 1824م-1828م.

واستطاع الرائد كولونيو COLONIEO (مياي، 2005، الصفحات 413-414) عام 1277هـ - 1860م والملازم بوران BORIN اكتشاف منطقة تنقورارين وتوات، وكانت تضم هذه البعثة حوالي 10.000 (عشرة آلاف) رجل وأكثر من 3.000 (ثلاثة آلاف) رجل وامرأة، انطلقت من البيض سيد الشيخ بعد وصولها إلى قصور تيميمون فصدت أبواب القصور في وجوههم، فاتجهت الحملة إلى تيمي بتوات فكان الاستقبال والرفض نفسهما، فكان مآلها الرجوع. فقام الرحالة هنري بارث، برحلة استكشافية في عامي 1849م-1855م ماراً من [طرابلس إلى غدامس ثم فزان - تومبوكتو - تينجورارين وتوات وتيديكلت]، فقد في رحلته زميله ريتشارد سون. كما قام كل من الضابط دوكولومب ودوفيري برحلة استكشافية إلى قصور [تنقورارين وتوات وتيديكلت] وصفها دوكولومب بكونها (جزر خضراء وسط محيط من نار) وذلك سنة 1274 هـ - 1857م، دامت 25 (خمسة وعشرين) يوماً.

وفي سنة 1303هـ-1885م وصل الملازم مار سال بالات (MARCEL PALAT) (CANAL, 1934, pp. 86-90) إلى عين صالح عن طريق المنيعه، وانطلق إلى تنقورارين ووصل إلى تتركوك عن طريق تعنطاس وتفطن السكان لجنسيته لأنه لم يكن يحسن العربية، ثم توجه إلى سموطه في سبخة تنقورارين بتاريخ 22 جانفي -1886م 1304هـ، ثم توجه إلى دلدول والتقى بالشيخ بوعمامة، ثم عاد بعدها إلى عين صالح، وفي الطريق قتله أولاد زنان بحاسي لاتو بين عين صالح وعين بلبال في 21 فيفري 1304 هـ-1886م.

أراد المكتشف كاميل دولس CAMILLE DOULS إتمام ما قام به زميله باللات إلا أنه غير خط سيره سنة 1306 هـ - 1888م، انطلق من طنجة متقمصا شخصية عربي مسلم سمى نفسه بالحاج عبد الملك، إلا أن السكان بتافيلالت وإقليم الساورة شكوا في أمره بسبب لهجته الغير فصيحة، وفي منطقة توات اكتشف أمره وهذا ما جعل الطوارق يخططون لاغتياله في (إبياتانتان) بحاسي إيلغن بين أولف وأقبلي، وقد وضع الفرنسيون تمثالا له في المكان الذي قتل فيه وهذا سنة 1888م. تقديم العديد من الأسرار للمصالح الاستعمارية إلى أن وصل إلى واحة أقبلي. (مياسي، 2005، الصفحات 492-493)

وفي الفترة نفسها كان جيهارد رولف (GERHARD ROHLFS) (العربي، 1983، صفحة 89) يقوم برحلة عبر الصحراء وهو أول أوروبي استطاع أن يخترق الصحراء من الغرب إلى الشرق خلال الفترة الممتد من 1862م-1885م، بدأ رحلته من المغرب عن تافيلالت مرورا بوادي الساورة وتوات وصولا إلى تيمقطن يوم 12 سبتمبر 1281 هـ - 1864م، ثم وصل إلى أولف العرب واستقبله شيخ قبيلة أولاد زنان، وفي 15 سبتمبر وصل إلى تيط ثم إلى عين صالح حيث استقبله أولاد أبا جودة، وهو الذي نصح الفرنسيين لينقلوا حدودهم إلى نهاية وادي الساورة كما قال: ((قبل كل شيء على الفرنسيين أن ينقلوا حدودهم إلى نهاية وادي الساورة فمن هناك بالضبط تبدأ كل المصائب وكل الفوضى مادام الفرنسيون لم يستولوا على هذه الحدود الطبيعية، ولن يكون هناك أي هدوء دائم في جنوب مقاطعة وهران)) (voinot, 1909, p. 361). خاصة لما أصبح إقليم توات وواحاته ملجأ للثوار الذين يفرون إليها للاعتصام والاستعداد.

إن احتلال توات هو ضمان لاحتلال كامل البلاد والقضاء على القواعد الخلفية للثائر الشيخ بوعمامة أما عن سبب مجيئه إلى قصر دلدول يرجع إلى أن هذه المنطقة لم يسيطر عليها الفرنسيون مما جعله يرتب فيها أحواله وينظم فيها جيوشه وكان له تأثير واسع في المنطقة.

لقد قدم المستكشفون خدمة جليلة للساسنة الفرنسيين من أجل احتلال الواحات لأنهم جمعوا كمية ضخمة من المعلومات عن كل ما يتعلق بسكان هذه المناطق وأهميتها الاقتصادية، وبفضل هذه المعلومات تمكنت جيوش الاحتلال من تهينة الجانب المادي الذي يخول لها الاستيلاء الكامل رغم المقاومة الباسلة التي قام بها سكان هذه المناطق ونستشهد في هذا المقام بما جاء في

نهاية تقرير إمبرهني دورليان DORLEANS إلى الوالي العام وهو يتكلم على الحملة الفرنسية التي استولت على بسكرة في 04 مارس 1844م حيث قال: " لقد بعثت عيوني من الضباط الذين يحسنون اللغة العربية فاختلفوا بجميع القبائل وفي ظرف 10أيام، أتوني بالإرشادات السياسية اللازمة والإحصاءات الصحية التي مكنتني من إنشاء سلطة متينة واتخاذ التدابير الأولى المستعجلة لفائدة فرنسا.(BRUN, 1986)

ورغم أن هذه الرحلات الاستكشافية شارك فيها عدة شخصيات من جنسيات مختلفة إلا أنهم عملوا وضحووا رغم المخاطر التي واجهتهم حتى يتسنى لهم تقديم الخدمة للمحتل الفرنسي . بعد نجاح الجنرال توماسين THOMASSIN في الوصول إلى هدنة مع أولاد سيدي الشيخ، عمل على استقرار الوضع حتى يسهل عليه الانتقال إلى أقصى الجنوب الوهراني، وإنهاء حرب المناوشات الدامية لحوالي 20 سنة. عملت فرنسا بعد ذلك على إعطاء السكان الصحراويين نوعا من الاستقلال الذاتي يتمشى ويتوافق مع نظام المكاتب العربية ضمن الحكم العسكري حتى تعتمد عليه في الاستيلاء على الصحراء.

ثانيا: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة توات إبان فترة الاحتلال

فالدلائل تظهر أن الإدارة الاستعمارية لم تترك أي مورد للرزق إلا استولت عليه واحتكرته، وأبعدت سكان الإقليم عن المساهمة بشكل فعال في أي نشاط اقتصادي، خاصة بعد انهيار تجارة القوافل التجارية، ومحاصرة الطرق التجارية وقد نجم عن ذلك تعطل هذه الحرفة، فتوجه معظمهم إلى الزراعة وتربية الماشية، باعتبارها المورد الهام للسكان وهي منتشرة في كل ربوع قصور المنطقة، ناهيك عن الغرامات الباهظة التي فرضها الاستعمار عليهم ومصادرة الممتلكات عند العجز عن تسديد الغرامة، مع الحد من حرية تنقل الرعاة وقتل الإبل والأغنام بالطيران باعتبارها مناطق رعي محرمة (BECHAR, 2000, p. 165).

دخل سكان القصور والمدن بالإقليم معركة ثابتة مع الاستعمار لإثبات الوجود ومقاومة الفقر والبطالة والاحتكار المسلط عليه، اعتمدت الإدارة في حكمها للإقليم على السعي حثيثا لتمزيق النسيج الاجتماعي، والدلالة على ذلك بداية حركة الهجرة الجماعية للمناطق المجاورة، فإن فتوى نازلة أهل قوراره أكبر شاهد للرفض الاستعماري، يطالب فيها سكان قوراره شيوخ الإسلام بمكة

المكرمة رأي الشرع فيما إذا تغلب الكفار على وطن من أوطان المسلمين يبقون أم يهاجرون، فكان رد فعل الإدارة الاستعمارية استمالة أهل المنطقة وتعيينهم في مراكز إدارية وقضائية بغرض نزع فتيل المقاومة وطمأننة سكان الإقليم إلى إنسانية فرنسا التي جاءت إلى الإقليم بهدف إخراجهم من العزلة والتخلف وربطهم بسبل التقدم والحضارة، وكانت هذه السياسة تهدف إلى أمرين أساسيين:

- العمل على نشر النفوذ الفرنسي في الصحراء واجتذاب المواجهة المسلحة إلى حين.
- إدماج السكان في الحضارة الفرنسية وتنصيرهم.

ثالثا: المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي في منطقة توات

لقد سعت فرنسا الاستعمارية منذ احتلالها لشمال البلاد إلى تحديد مناطق نفوذها في أماكن متاخمة لأقاليم الجنوب الغربي للجزائر خاصة غرب إفريقيا وأن تتكفل بنفسها لذلك قامت بإمضاء معاهدة مع بريطانيا يوم 05 أوت 1890، لتصبح بموجبها كل أراضي الجنوب الجزائري مناطق نفوذ فرنسي وقد علق على ذلك اللورد ساليس بوري لوروس في كلمة ألقاها جاء فيها: " أن فرنسا تحفر كثيرا في الرمال لتستخرج كنزها ". (مياشي، 2005، صفحة 2473)

كانت بعثة فلاموند 1896flamand م والضابطان لابرين وجيرمان germaine et laperrin أهم حدث استطلاعي، وما قل نشاط الفرنسيين لتبدأ بعثة فلاموند الثانية خلال 1899مرحلة الغزو والاحتلال الكامل لتوات. كما كانت بعثة فلاموند الثانية، إلى منطقة تيديكالت وعين صالح بداية الاستيلاء والاحتلال التي أشرفت عليها وزارة المعارف العمومية وشؤون المستعمرات، كما أمرت الحكومة النقيب بان pein بحمايتها، كما أعطى وزير الحرب أوامره إلى النقيب جيرمان germaine بالتحرك مع فرقته الصبائية الصحراوية تجاه البعثة.

غادرت البعثة مدينة ورقلة يوم 28 نوفمبر 1899 م متجهة إلى عين صالح واتبعت في البداية طريق حملة فلايرز التي سلكها، فوصلت هذه الأخيرة إلى حاسي إنغر في يوم 09 ديسمبر 1899 م، وانتقلت إلى حاسي سوفي يوم 15 ديسمبر 1899 م، وفي يوم 18 ديسمبر 1899 م وصلت إلى وادي ماسين، وفي 26 ديسمبر 1899 م وصلت إلى منطقة فقارات الزوا ثم واحة إيقسطن.

اكتشف أهالي عين صالح النوايا الخفية لهذه البعثة فاستنفروا للجهاد وأعدوا ما استطاعوا من القوة والشجاعة والإيمان والتضحية في سبيل الأرض والعرض والوطن وتجمعوا تحت قيادة المجاهد الحاج المهدي أبا جودة، فبدأ الزحف صبيحة يوم 28 ديسمبر 1899 وكأنهم ذاهبون إلى نصر محقق.

بعثت فرنسا إلى الحاج المهدي يطلبون منه السماح لأربعين فرنسيا للمرور وسط الواحة وقد عقد هذا الأخير اجتماعا مع أعيان البلاد للنظر في الطلب الفرنسي، ولما كان إجماعهم على الرفض وطلب الإبعاد عن واحتهم، إلا أن رد الفرنسيين كان بعملية استفزازية حيث أطلقوا خلالها النار في الهواء لإزعاج السكان وإرهابهم خاصة لما علموا أن فرقة الصابحية الصحراوية بقيادة النقيب جرمان في طريقها لدعمهم مما أثار غضب السكان، فقرروا الخروج لتأديب هذه البعثة، وبذلك أعلن الحاج المهدي أبا جودة الجهاد وانضم إليه عدد كبير من الناس من مختلف قصور عين صالح من : الساهلتين (الفوقانية والتحتانية) حاسي الحجر - فقارة الزوا - البركة وإنغر.

رابعا: المعارك في المنطقة

1. معركة الفقيقية 27 ديسمبر 1899 م

شكل سكان المنطقة جيشا مكونا من حوالي ألف إلى ألف ومائتين شخص واتجهوا نحو البعثة والتي كانت قد بثت عيونها في البلاد ونقلوا لها استعداد سكان المنطقة لمهاجمتها واعتصموا خلف الكثبان الرملية يترقبون قدوم سكان المنطقة الذين وصلوا مهللين مكبرين إلى منطقة الفقيقية (تقع شرق عين صالح وتبعد عنها حوالي 20 كلم وهي بالقرب من إقسطن التي تعتبر من القرى القديمة بالمنطقة، وكان فيها ميدان فسيح ألتحم فيه الجمعان أثناء المعركة) وكانت خططهم تقتضي الاقتراب من العدو لأن السلاح المستعمل يتطلب الالتحام مع العدو وقد أطلق النار رجل يدعى بوفه الذي لم يستطع تمالك نفسه عند رؤيته للفرنسيين، فأذنت تلك الطلقة النارية بداية المعركة في حوالي الساعة السابعة صباحا، وتحولت البعثة العلمية إلى مشروع توسعي احتلالي والمتضمنة حوالي سبعمائة جندي مدججين بأحدث الأسلحة الأمر الذي صعب على المجاهدين المقاومة لأنها لم تكن متكافئة ورغم ذلك أبلى فيها السكان وسكان المنطقة بلاءا حسنا، وأصيب الحاج المهدي أبا جودة بجروح بليغة واستشهد على إثرها فكان مقتله كالصاعقة على بقية الثوار مما أدى إلى تخلخل

الموقف العسكري وانحزام المجاهدين، وانتهت المعركة في الساعة العاشرة مخلفة خمسين شهيدا من بينهم الحاج المهدي أبا جودة وأبنة وأخوه بوعمامة، بالإضافة إلى 150 جريحاً، أما المصادر الفرنسية فإن أرقام ضحاياها متضاربة، فأوردت أن الجيش الفرنسي لم يفقد سوى قتيل واحد وجرح 14 جندياً، يسعون دوماً لتضخيم الأرقام والتقليل من خسائرها. (G.TILLON, 1903, pp. 13-14)

2. معركة الدغامشة 05 جانفي 1900 م: (بلعالم، 2005، صفحة 05)

تمكنّت القوات الفرنسية من الدخول إلى عين صالح واتخاذ قصبة أبا جودة مركزاً لهم ورفع العلم الفرنسي عليها، فأستنجد سكان المنطقة بمختلف قصور تيديكلت لمساعدتهم على استعادة عين صالح كأقبلي وتيط وأولف وإنغر، بعدما فرضت فرنسا غرامة مالية قدرت بـ 10.000 فرنك فرنسي جمعت خلال يومين وقسمت على جيش الصبائية الصحراوية، وهكذا هبت كل القبائل لاستعادة عين صالح للدفاع عن الممتلكات والانتقام لما حدث في معركة الفقيرة، وانتظموا تحت قيادة مولاي عبد الله الرقاني وصل عدد المجاهدين أكثر من ألف، وعقدوا اجتماعاً بقصر (البركة) للإعداد للمعركة، وفي هذه الأثناء كانت جواسيس العدو تجمع الأخبار وتزوده بها، ولما علمت القوات الفرنسية بما يحاك ضدها لمهاجمتهم في قصبة أبا جودة اتخذت الإجراءات اللازمة لمجاهدة المجاهدين، وفي يوم 05 جانفي 1900م انطلق المجاهدون عازمين على تحطيم قصبة أبا جودة ومن فيها من قوات العدو، فإذا بهم يفاجئوهم في منطقة الدغامشة (إحدى قصور عين صالح تبعد بأربعة كلم عن مقر بلدية عين صالح جنوباً). بعدما أن درست قوات العدو المكان اتخذت الوضعيات المناسبة، فاحتلت الكتبان الرملية لتختفي خلفها ولما وصل المجاهدون إلى المكان المكشوف في هذه المنطقة حيث كانوا في متناول البنادق الفرنسية، فقد أبلى الثوار بلاءً حسناً في التضحية والفداء والثبات إلا أن عوامل النصر كانت ضئيلة بالنسبة للمجاهدين، منها الأرض المكشوفة واختلاف العدة خاصة المدفع وانفجار برمبل بارود وانتهت المعركة بهزيمة الثوار تكبدوا فيها خسائر كثيرة قدرت بمائة وخمسين (150) شهيدا وعلى رأسهم الثائر مولاي عبد الله الرقاني وأربعمائة (400) جريح، ولم تشر المصادر إلى الخسائر الفرنسية، وانتهت الموقعة بإحكام السيطرة على عين صالح والقضاء على أمل استعادتها فكانت هذه النتائج مشجعة للقوات الفرنسية لمواصلة

التوغل في المنطقة وإخضاع باقي القبائل في تيديكلت، إلا أن فرنسا وجدت ما لم يكن في جدول أعمالها حيث خاضت معركة إنغر التي تكبدت فيها خسائر كبيرة.

3. معركة إنغر جانفي - مارس 1900 م

كان لإنغر أهمية خاصة للإستراتيجية العسكرية الفرنسية، حيث ما كان لها أن تأمن على تواجدها في منطقة تيديكلت إذا لم تخضع إنغر وهي امتداد للمعارك السابقة وجزء من خطة الإطباق للسياسة الاستعمارية على واحة توات لتطويقها من الشمال عن طريق اقلي التي تسعى للسيطرة عليها، ومن الشرق عن طريق عين صالح ثم إنغر. لقد اجتمع الثوار الناجون وأرسلوا النجادات إلى كل أنحاء القصور والمناطق القريبة خاصة أهل توات وتنجوارين وإعداد العدة لمجابهة الكفار الغزاة، ولما علمت فرنسا بما يجري عن طريق عيونها المنتشرين قررت الشروع في مهاجمتهم قبل أن يهاجموها ولحسن الحظ فإن سكان المنطقة استفادوا من الأخطاء التي كانت في المعركتين السابقتين. (L.VOINOT, 1909, p. 421).

فتحصنوا في قصبتين موجودتين في البلاد، وأقاموا خطين دفاعيين واحد عند مدخل الواحة والثاني عند مدخل الفقارات، كلف بومقارتن BOMEGARTEN ملازمه كاو ستره KAOUSTRA، بالسير إلى إنغر على رأس مائة (100) فارس يوم 21 مارس 1900م، ودخل إنغر دون مقاومة مما جعل بومقارتن BOMEGARTEN يسرع إلى اللحاق به بقوة عسكرية بلغت مائة وخمسين (150) جندي فرنسي ومائة (150) قومي، حيث حاول مهاجمتها في 26 جانفي 1900م لكن صعب عليه الأمر فتراجع إلى عين صالح لتنظيم قواته، وقد أدرك سكان المنطقة أن هذا التراجع ما تمَّ إلا للإتيان بقوة أكبر، وجاءت النصر من: رقان وسالي وتيمي وتساييت (الهبله) وتيميمون، مشكلين جيشا بقيادة إدريس الكوري المدعو باشا تيمي، وعند وصولهم إلى إنغر توزعوا على القصبتين (أولاد جلول وأولاد حادقا) متبعين نفس الخطة حيث ركزوا جهودهم على الجهة الشرقية، وطلب منهم القائد الفرنسي الاستسلام للاحتلال الفرنسي لكن المجاهدين وسكان المنطقة رفضوا وفضلوا المقاومة والجهاد وتجلى هذا الموقف في مقولة زعيم المعركة عزري الحاج محمد بقولته الشهيرة : (والله لو ماتوا أكبارها وطيحوا أسوارها وتخلط أنساها مع صغارها لا نستسلم). رغم أن القوات الغازية لجأت إلى اقتحام القصبتين إلا أنها فشلت أمام شدة

المقاومة وخسائر في الأرواح والعدة، اضطر القائد الفرنسي إلى طلب التعزيزات والأسلحة من مركز المنبعة وتمكنت القوات الفرنسية من تنصيب المدافع باتجاه القصبتين وتحطيمهما، وأمام قوة نيران المدافع تزعزعت صفوف المقاومين واضطروا إلى الانسحاب بعدما احدث فيها ثغرات وقد وصف شاعر المقاومة الشعبية وقعه على المجاهدين سيئا للغاية.

بعد سقوط إنغر توجهت القوات الفرنسية إلى احتلال مدينة تيط يوم 23 مارس 1900 م ودخلتها دون مقاومة وتلتها أقبلي يوم 23 مارس، وفي يوم 28 مارس تم احتلال مدينة أولف، وقد أبلى أهاليها بلاءً حسناً في موقعتي الدغامشة وإنغر، وعلى رأسهم الشهيد مولاي عبد الله الرقاني وتم الحرق من طرف المستعمر لجميع البنادق والأسلحة في أمسية ذلك اليوم قرب قصبة الجديد. (قدي، 2006، صفحة 20). -وفي شهر أفريل قام الناصر الحاج أحمد دحة، بانتفاضة على القوات الفرنسية حيث استطاع أن يقضي على كامل الحامية، لكن الفرنسيين وجهوا له حملة عسكرية من عين صالح بقيادة الملازم كونتيسست CONTNCIT فقمعت انتفاضته وأعدم.

صمدت المقاومة الشعبية في منطقة شروين وطلمين ثم انسحبت نتيجة المدد الكبير الذي جاء من شروين، مخلفة وراءها خسائر فادحة في صفوف العدو تقدر بخمسة وعشرين (25) قتيلاً من بينهم ضابطان، وخمسين (50) جريحاً من بينهم ثلاث ضباط ومحمد بن الطيب نائب الطريقة القادرية بورقلة الذي كان يقود الفيلق العربي، وهكذا تسقط شروين تحت الاحتلال يوم 06 مارس 1901 م وطلمين يوم 09 مارس 1901 م، ويعود جيش الجنرال إلى تيميمون يوم 13 مارس 1901 م ليضمه جراحه. (AUGIERAS, 1930, pp. 27-28)

لم يهدأ أهالي منطقة قراره وتوات أمام الجيوش الغازية إذ استمرت المقاومة في أولاد راشد وكابرتن وزاوية كتنه وسالي مما اضطر إلى رجوع الجنرال يوم 07 أفريل 1901 م إلى قصر تيممي بعد إخماد هذه الانتفاضات. وينطلق بقواته نحو الشمال ويلتقي في كرزاز قوات العقيد بيبه PILLET، وتم احتلال بني عباس يوم 01 مارس 1901م، وقد أشرف على هذا الاحتلال الجنرال راسبورغ RISBOURG وتلاحمت القوات يوم 13 أفريل 1901 م بقصر القصابي، بعد احتلال هذه المناطق قام الجنرال سرفيال بتنصيب الحاميات العسكرية وإنشاء الدوائر والملحقات، ثم ألحق هذه

التنظيمات الاستعمارية الجديدة بتعيين الضابط لابينين LAPERINE قائد أعلى للوحدات الصحراوية، وعلى إثرها قسم المستعمر المنطقة لمراقبة سكانها .

لقد أثبتت المقاومة الشعبية الباسلة لهذه المنطقة الرفض القاطع للوجود الاستعماري وتعزز هذا الصمود في معارك المطارفة وشروين وتيديكالت التي تحولت إلى مجزرة وبعد مضي سنتين على معركة طلمين، تجددت المواجهة في تنجورارين منها: مقاومة حاسي الغزال التي اندلعت في شهر أوت سنة 1903 م، وسقط في هذه الموقعة ثمانية وعشرون (28) عسكريا نقلوا إلى مدينة أدرار، وكونوا مقبرة للنصارى في هذه المدينة. وتمثل مقاومة الشيخ عثمان في 07 ماي 1902 م، وملحمة الكدية في ديسمبر 1902م بقيادة الشيخ بن كراجي، ومعركة الثائر المجاهد زين العابدين الكنتي ضد طابور الكولونيل بونيه PONNIET.

ورغم قلة الإمكانيات وجغرافية المنطقة فإن حرب العصابات والكمائن ظلت مستمرة إلى غاية سنة 1927 م، حيث عمت المقاومة الجزء الغربي والشرقي بزعماء الثائر زين العابدين كنتي، حيث أضحت توات الوسطى وتيديكالت وتنجورارين قاعدة خلفية له ولم يستطع العدو الفرنسي إلقاء القبض عليه، ومن النتائج المستخلصة لهذه الانتفاضة الواسعة معركة قصر باعمر لتوات الوسطى سنة 1928 م. (مكي، 1987، صفحة 44)

خامسا: تأثير الاستعمار في الحياة الثقافية في المنطقة

لقد اقتضت الضرورة الاستعمارية إلى الاهتمام بكل شيء قصد خدمة المصالح الفرنسية، وفي هذا الإطار كان ضباط الاحتلال يسعون لتعلم العربية ومعرفة تقاليد المجتمع بالإقليم، ومحاولة الاطلاع على كل ما يجري في الإقليم بهدف إحكام قبضتهم والسيطرة عليهم، ولهذا فإن كتابات ضباطها سواء منها التاريخية أو الثقافية أو العلمية كانت دون شك وسائل أساسية استراتيجية لتنفيذ سياسة المحتل وإعطاء كل المعلومات المتعلقة بالقبائل، والاهتمام بالتكوين الشعبي بهدف تعليم اللغة الفرنسية، لتجسيد الهيمنة الاستعمارية.

كانت سياسة الاستعمار تستهدف حراسة الزوايا باعتبارها في وجهة نظرهم مراكز لتخرج عناصر متعصبة معادية للسلطة الفرنسية، الدين هو جوهر هذه المسألة في تفكير الاستعمار، ذلك أن الطالب وشيخ الزاوية يترجمون هذا المثل الديني. (TURIN, 1971, p. 120) كما

كانوا يحظون بمكانة مرموقة ومتميزة في الوسط الاجتماعي المسلم، نظرا للدور المنوط بهم في التوعية والتعبئة ضد العدو.

ولم يخف ضباط الاحتلال موقفهم تجاه الطلبة ومدرسي القرآن والكتاتيب، وهم في "نظرهم أعداؤهم الحقيقيون، تلك الفئة الطلابية التي كان أغلبها من الشباب قد تم اكتشاف دورها السياسي والثقافي مستقبلا، ولقد كانت الزوايا حلقات اتصال وهمزة وصل بين شيوخ الزوايا ورجال الدين، فهي تشكل في آن واحد مراكز للصلاة والتعليم والعلاج ومأوى للمحتاجين والتوجيهات السياسية. فالتعليم الأهلي كان محفوظا ومضمونا في كامل الإقليم من طرف هؤلاء المشايخ والطلبة والمريدين، مما يفسر كذلك استمرارية العقيدة الإسلامية الصحيحة واللغة العربية. (فركوس، 2005، الصفحات 383-384)

سادسا: سياسة الاستعمار في ممارسة التجهيل

تفيد الكتابات الفرنسية والوطنية في هذا الموضوع أن الفرنسيين مارسوا فعلا سياسة التجهيل، وكان نصيب الجزائريين في مقاعد الدراسة يمثل 15/1 طفل أوروبي خارج مقاعد الدراسة. (درواز، 2002، صفحة 27) من هنا شكلت زوايا الإقليم والكتاتيب القرآنية مراكز إشعاع ثقافي ساهمت إلى حد كبير في المحافظة على اللغة العربية والعلوم الشرعية وأصول الدين، واعتبرت حزاما آمينا وصمام أمان ضد سياسة التجهيل والبعثات التنصيرية التي قامت بها الكنيسة، فتشييد الزوايا شكل صرحا منيعا ويرجع الفضل إلى علماء المنطقة وعلى رأسهم: العارف بالله العالم الشيخ أحمد ديدي الذي أنشأ مدرسة داخلية ببلدة تمنطيط خلال بداية القرن العشرين، وتخرج على يده طلبة ومن هؤلاء الشيخ محمد بن الكبير الذي أصبح عالما بشهادة العام والخاص وقطب إجماع، جمع ما بين الشريعة والحقيقة.

ومن المشايخ والعلماء الذين ساهموا في تشييد هذا الصرح: مولاي أحمد الطاهري الإدريسي في بلدة سالي، فقد أسس مع أعيان بلدته مدرسة قرآنية لمجاهمة التجهيل والتنصير والمخططات الاستعمارية.

أما بالنسبة للأقسام التي أنشأتها الإدارة الاستعمارية في المنطقة فكانت محدودة العدد والرواد وذلك لعدة أسباب:

- أن المنطقة كانت تحت حكم النظام العسكري بمقتضى قانون 1902 م.

- اختلاف مدارس الجنوب عن الشمال نظرا لقلة تواجد الجاليات الفرنسية واليهودية مما دفع سلطات الاحتلال بتشجيع رجال الكنيسة وأحداث أقسام تعليمية والأقسام الرسمية المحدثة خاصة لأبنائهم، وبالتالي يعد التعليم تعليما محدودا.
 - تواجد التعليم الفرنسي جاء متأخرا أو منافسا للزوايا والمدارس القرآنية.
 - رفض المواطنين تعليم أولادهم لغة الاستعمار خوفا من استمالة أولادهم إلى التنصير.
- (تيران، 2007، الصفحات 281-282)

أما الذين حظوا بالقبول في المدارس القرآنية حرس آباؤهم على تعليم أبنائهم في الكتاتيب القرآنية والزوايا، قبل وبعد الذهاب إلى الأقسام الفرنسية وبعده أضحى التعليم الفرنسي محصورا ومحدودا من حيث الأهداف والمرامي والغايات.

وما يمكن استخلاصه أن إقليم توات قاوم سياسة التجهيل والتنصير والتغريب التي حاولت الإدارة الاستعمارية فرضها على أهالي المنطقة، ويعود الفضل في ذلك إلى عملية التوعية والإرشاد التي تطلع إليها علماء المنطقة ومشايخها، ومقاطعة إدارة الاحتلال والجمعيات الإنسانية والخيرية التابعة لها.

خاتمة:

وما سبق نستخلص جملة نتائج نجملها فيما يلي:

- . ازدياد الاهتمام الفرنسي بالإقليم مع نهاية القرن التاسع عشر وضرورة احتلاله.
- . تسابق البعثات الاستكشافية التي تحولت في النهاية إلى حملات عسكرية، مثل بعثة فلاموند.
- . العناية المتكررة التي راعى بها الحكام لاحتلال هذا الإقليم وقد علق على هذا لافاريار يوم 03 أبريل 1900م حيث قال: (إن هذا الانجاز قديم بفضل مجهودات الذين سيروا قبلي ولهم كل التقدير، إنه عندما ينضج العمل يجب قطفه، إن بعثة فلامون قد أسقطت تلك الثمار الناضجة جدا).
- . الاهتمام الفرنسي بالمشاريع المستقبلية مثل مشروع سكة الحديد بحر النيجر mer niger الذي أنفقت الحكومة الاستعمارية عليه ملايين الفرنكات ولكنه فشل لتداخل مصالح السياسيين والعسكريين.

. الحفاظ على مكانتها الاستعمارية واستغلال كل الإمكانيات لربط مستعمراتها الشمال بالجنوب والغرب والشرق واحتكار الطرق التجارية الهامة.

. شكلت المقاومات الشعبية الرفض القاطع للتواجد الفرنسي بالمنطقة.

. أظهرت الانتفاضات الشعبية روح التضامن والتلاحم لتحرير البلاد والعباد من الوجود الرومي.

. بعد الإخضاع الكلي شرعت الإدارة الاستعمارية تحت امرة سيرفيار على تنظيم الإقليم من الناحية الإدارية والعسكرية إلى مجيء لايرين كحاكم عام للأقاليم الصحراوية.

المصادر والمراجع:

أ_ باللغة العربي:

1. إبراهيم مياسي. (2005). الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837م-1934م. الجزائر: دار هومة.
2. اسماعيل العربي. (1983). الصحراء الكبرى وشواطئها. الجزائر: المؤسسة الوطنية.
3. الصالح فركوس. (2005). تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال المراحل الكبرى. دار العلوم للنشر والتوزيع.
4. المهدي درواز. (2002). الولاية السادسة التاريخية تنظيم ووقائع 1954 - 1964 (الإصدار ط الثالثة). دار هومة سلسلة أوراق من الذاكرة.
5. ايفون تيران. (2007). المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة - المدارس والممارسات الطبية والدين 1830م-1880 م. (المراجعة والإشراف مصطفى ماضي، المحرر، و ترجمة محمد عبد الكريم وزغلة، المترجمون) دار القصة للنشر.
6. عبدالمجيد قدي. (2006). صفحات مشرقة من تاريخ أولف العريقة (الإصدار 1). الجزائر.
7. قلوب مكي. (1987). الغزو العسكري الاستعماري لأقصى الجنوب والمقاومات المسلحة الشعبية لمنطقة توات وتيديكالت وتنجورارين لمجاهمة هذا الغزو). مجلة آفاق التنمية أدرار.
8. محمد الصالح حوتية. (2007). توات والازاود خلال القرنين الثاني عشر و الثالث عشر للهجرة (الثامن عشر و التاسع عشر ميلادي) دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية 7. الجزائر: دار الكتاب العربي.
9. محمد باي بلعالم. (2005). الرحلة العلية إلى منطقة توات الجزء الأول. الجزائر: دار هومة .
10. يحي بوعزيز. (1999). مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية .

ب_ المراجع بالأجنبي:

11.AUGIERAS. (1930) CHARONIQUE DE LOUEST
SAHARIENNE 1900-1930. PARIS: PARIS EDITION DES
COMITES DE L'AFRIQUE FRANCAISE .

12. CANAL, J. (1934). ((LES MARTYRS DU SAHARA)) ,IN
BUL. SOC .GEOG D'ALGER,ET DE L'AFRIQUE DU
NORD, . (N°35).
13. G.TILLON. .(1903) *LA CANQUETE DE OUASIS
SAHARIENNES* . PARIS : EDITION MELITAIRES.
14. HANI ABDELKADER BECHAR. .(2000) *LA REGION
ENTRE HISTOIRE ET "LEGENDE* (الإصدار PREMIERE
EDITION). ORAN: DAR EL GHARB.
15. IVON. TURIN. .(1971) *AFFRONTEMENTS CULTURELS
DANS L'ALGERIE COLONIELE 1850-1880* . PARIS .
16. KADDACHE, M. (2003). *et l'Algérie selibira 1954-1962
première*. edition Paris méditerranée 2.
17. L.VOINOT. .(1909) *LE TIDIKELTE IN.BSGAR D'ORAN* (المجلد
TOM XXIX).
18. louis vainot. .(1909) *Le Tidikelt, Bulletin de la Société de
géographie d'Oran*.
19. MALTE BRUN. .(1986) *roholfs au Touate et in-salah; :
Résume Historique;Géographique de l'exploration de
Penetration* . , paris.